سوانح

عهدت أديباً تمت له أدوات الفضل وما كان ينقصه الا أن يشرع بالعمل ، وبقيت دهراً أتوقع أن يخرج من قلمه ولسانه ما ينتفع به قومه . وكثيراً ما كنت أتلطف بدعوته الى واجبه فثبت لي بطويل الأيام أن الرجل صاحب دعوى لا يهمه نشر العلم بقدر ما تهمه المظاهر والمادة . وكان مما يؤلمه أن يرى بعضهم يرقون في الوظائف ، ومنهم تلاميذه أو من عرفهم صغاراً ، وهو ثابت في مكانه لا يتزحزح منه . وادعى في أخريات أيامه انه سيكتب كتاباً لم يسبق للعالم أن ألف لهم ما يحاكيه ، عجز القدماء والمحدثون عن الاتيان بمثله ، وسماه اسماً مغرياً . وظل على هذه الأوهام حتى وافاه الحمام ، وما أخرج فصلاً من فصول كتابه الذي لم يخط سطراً منه فيما أحسب .

بلغ الاعجاب بالنفس في بعض المعاصرين المغرورين أن ذهبوا من الأرض وما أفادوا أنفسهم ولا أفادوا غيرهم ، وما كانت دعاويهم الا خيالات وأوهاماً ، يتبجحون بها أمام أصدقائهم وأعدائهم . ولو كانوا على شيء من حب العمل لأخرجوا من بضاعتهم ما يبيضون به وجوههم . ويدفعون عنهم ما يُرمون به من القصور . ولو ان كل مؤلف وكل باحث وكل مخترع توقف عن نشر ما ألفه وبحثه واختر عه أو يبلغ غاية الكمال الذي يتصوره لمضت العصور وما ظهر في العالم ما يفيد الانسانية . المتنطعون لا يأتون عملاً كاملاً ولا ناقصاً . ويقال لمن يموهون بأنهم يتطلبون الكمال بتربثهم عن نشر شيء من أدبهم وبحثهم : لكل حسن في هذه الحياة أحسن منه ، والتسويف لبنس من الحزم في شيء .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

اذا كثر عدد من يتجهم للئام ويحتقرهم ينقرضون مع الزمن ، ومن عود نفسه الاعراض عن المماحكين ينفع نفسه وينفع غيره .

لا تعبأ بقول من يحبب اليك التغاضي عن انكار العيوب ، فالاصلاح لا يرجى الا اذا قام كل من يعقل بما يقدر عليه من تقويم المعوجات .

قالوا ان الغرب اخترع آلة اذا سلطت على رأس الانسان كشف بها ما يجول في خاطره من الأفكار . اذا صح هذا الاختراع يبطل الكذب والتعدي فتغدو هذه الآلة المباركة من أنفع ما أوجد الانسان لخدمة الانسانية

يمل الحياة وتمله كل من لا يحسب حساب وقته ، ولا معنى للعمر مع الفراغ ، والخير كل الخير في المواظبة على العمل وان قلّ ، وقديماً قالوا : « غبار العمل خير من زعفران العطلة » .

قتل فلاح من قرية جوبر في الغوطة قتيلاً وجاء الى الجامع الأموي يختبئ في غرفة أحد مدرسيه ، واتفق أن دخل قاضي دمشق الأستاذ سعيد الأسطواني غرفة المدرس فتقدم هذا الى القاضي يرجوه أن يخفف الحكم عليه . فسكت القاضي ، وبعد دقائق نادى خادمه وأسرّ اليه أن يذهب الى صاحب الشرطة ليرسل اليه بضعة شرطيين فأتوا وقبضوا على القاتل ، واقترب القاضي من الشفيع وقال له : كيف تريدني على أن أعطل حداً من حدود الله ، بتخفيف الحكم في هذه الجناية ؟ فأبلس الشافع ثم قال : الحق معك يا مولاي ، وأعاهدك على ألا أعود الى مثلها ، وكان القاضي بحرصه على قتل القاتل عظيماً جداً ، والمدرس باعترافه بغلطه في شفاعته متعقلاً ، وفي التعليق على ما وقع أقول : ان هذه الأمة ما خلت حتى في عصور انحطاطها من قوالين بالحق ومن متفانين بتطبيق مفاصل الشرع على القوي والضعيف سواء .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

نظرت أعداداً من المجلات العربية التي تصدر في بعض أنحاء العالم الاسلامي في أيامنا كمجلة «الحج» في مكة المكرمة ومجلة «البصائر» في الجزائر ومجلة «لسان الدين» في تطوان ومجلة «الثقافة الهندية» في نيودلهي — فوقفت فيها على أبحاث متقنة بانشائها وموضوعاتها ، تنبيء بسعة علم كاتبيها . فقوي أملي بأن تغدو اللغة العربية من أوسع اللغات انتشاراً بعد جيل أو جيلين على الأكثر ، وبخاصة اذا تضافرت جهود مسلمي الباكستان والهندستان مع جهود الدول العربية ، دع سائر مسلمي الأرض كأهل أندنوسيا والصين وتركستان والقوقاز والقرم والأفغان وايران وتركيا . واذا غدت اللغة العربية لغة الباكستان الرسمية أصابت العربية أعظم حظ بين اللغات ما كان لها مثله أيام عز الدولة الاسلامية .

كان أحد شيوخ الأزهر الجامدين يجاهر شيخنا الأستاذ الامام محمد عبده بالعداوة في حياته ويكتب في تكفيره وتبديعه ويورد في دروسه أشياء من هذا القبيل . روى لي أحد الأصحاب انه اطلع لهذا العالم المتعصب على مقالة كتبها في آخر أيامه اعترف فيها باساءته للامام وشهد بحسن اسلامه وسعة علمه ! الرجوع عن الخطأ من أجمل الفضائل ، وكان هذا الاعتراف أجمل وقعاً لو جرى في حياة من يحاول منافسته ، والظاهر أنه كانت تحول دون ذلك أسباب منها المنافسة والحسد وحب الاستئثار بالحظوة من الملوك ، وحسن القبول من العامة . وبئس التحاسد تحاسد العلماء وبئس التباغض تباغضهم .

لو أقبلت الأمة على كل أمر فيه خير لها اقبال أبناء مصر والشام والعراق لعهدنا على التعلم لتولي الوظائف في حكوماتها لكنا من أرقى الأمم ، ولا يتأتى من تكثير سواد الموظفين الا انتشار روح الاتكال في سكان هذه الأقطار ، وفي ذلك من الخوف على مستقبل أبنائها ما لا ينكره ذو بصيرة . ومهما سررنا بهذا الاقبال على المدارس لا نراه الا مؤدياً الى ضعف الاستقلال الشخصي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ذلك لأنا شهدنا ممن تعلم الميكانيكيات مثلاً يرغب أكثر ما يرغب في التوظف، ومن يدرس الطب لا أرب له في غير التوظف، ومن يتعلم الزراعة أو الكيمياء لا يختار غير التوظف . وقلّ جداً في الدارسين من يفكر في سلوك طرق المهن الحرة ، وان اعتقد كل واحد ان مهنته تعود عليه بربح أوفر وعيش أهنأ اذا عاناها حراً . ونراه أبداً يفضل العيش المضمون ولو كان قليلاً ضئيلاً .

بدأت عقلية اختيار المتعلمين لسلك التوظيف منذ وضع الحجر الأول في أساس أول مدرسة أُنشئت في مصر في القرن الماضي ، وقويت هذه الفكرة مع الزمن وربما كان منها فيما يستقبل من الأيام ما تدخل معه الحياة الاجتماعية في اضطراب لا تقدر الآن مداه .

حبذا لو بحثت وزارات المعارف في الدول العربية في وصف دواء لهذا الداء داء اقبال المتعلمين على الوظائف بما لا تتسع للقيام به خزائن هذه الدول ، ويضر بمستقبل أبنائها الضرر العظيم .

أسدى الفنيان الأميركيان كارنيجي وروكفلر من ضروب الخير لخدمة الانسانية والعلم ما لم يفكر في شيء منه هنديان مسلمان أكثر منهما ثروة حتى ليعدهما الناس أغنى أغنياء العالم . صرف الأميركيان ثروتهما الضخمة على الملاجئ والمستشفيات وبيوت العلم وخزائن الكتب والمخابر ولم يصرف المثريان الهنديان شيئاً يذكر في هذه السبيل . خلد اسم الأميركيين العظيمين بما جادت به نفسهما الكريمة ويذهب الهنديان من الدنيا بصفقة المغبون كأنهما ما ملكا ولا عاشا . جمع الأميركيان العظيمان من الصناعة والتجارة ما جمعا بكدهما ونبوغهما ثروة عظيمة ، أحسنا انفاقها كل الاحسان ، وجمع الهنديان أموالهما من الصدقات والزكوات ، وشتان بين مال طاهر شريف ومال تعافه النفس لأنه مجموع من الدناءة والدجل .

الأغنياء عندنا يجودون على التافهات من مظاهرهم ولا تحدثهم أنفسهم أن يبنوا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ملجأ او مستشفى او مدرسة تكون صدقة دارة عليهم ، وآية شرف حقيقي لبيوتهم . كان المسلمون أيام كانوا عاملين بتعاليم دينهم على قدم الغربيين في التفكير في الخير العام والصدقة الجارية .

عشت الربع الأول من عمري في مدينة لا أسمع فيها ليل نهار الا أذان المؤذنين وأصوات المهللين والمكبرين . حتى اذا مدّ أول خط حديدي بين بلدتي وميناثها أصبحت أسمع صفير بخار القاطرات في الغدو والآصال . ثم جاء الترام الكهربائي بهزاته ورجفاته ثم اخترعت سيارات النقل والشحن والأوتوبوسات والأوتوكارات والموتوسيكلات والتراكتورات والموتورات وغيرها من المحركات ، وبكشف البخار والكهرباء وما نتج منهما من بديع المخترعات تطورت مرافق البشر وكانت أتت عليهم قرون كثيرة وهم يكتفون في استصباحهم بالشموع وسرج الزيت فأصبحوا لا ترضيهم المصابيح التي توقد بالنفط ولما أتى الكهرباء استشعع به الغني والفقير في المدن والقرى . كان الناس لا يعرفون للتدفئة غير الحطب والفحم ويتحملون ما فيهما من الاضرار بصحتهم ، وكربون الحطب وكربون الفحم قتال . فجاءت اوربا بهذه المدافئ السهلة تحمى بالحطب ثم بالفحم الحجري ثم بالكهرباء ثم بالمازوت وكان الدفء المنبعث منها أكثر قوة وأشد بعداً من الضرر .

قلت لصديقي الأمير مصطفى بك حنفي من كبار رجال القضاء في مصر : لماذا لم توجه اليك رتبة الباشا مع ان آخر مناصبك كان وكالة وزارة العدل ، ومكانتها عظيمة في عرف الدولة ، على حين شهدنا غيرك ممن أعتقد أن ليس لهم اقتدارك ولا استقامتك قد وصلوا الى رتبة الباشوية ، ولو كان وراءها رتبة أعلى لطالوها بكل حيلة . فأجابني رحمه الله جواباً لا يصدر الا عن عالم متواضع أشبع روحه بحب العدل والحق . كان صاحبي من النوادر في أبناء مصر الذين زهدوا في الألقاب والرتب لكثرة ما ابتذلت .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لم يرض بنو العباس أن يكون خليفتهم الأول ابن أمة . ولما ضعفت مشخصات الأمة على عهد ملوك الطوائف رضي العرب أن تحكمهم دولة جلُّ أبنائها من المماليك الذين مرَّت يد النخاس على رؤوسهم .

مما قلل عدد المختلفين الى الجوامع انحطاط الفئة التي تقوم بممارسة الشعائر في الأوقات الخمسة وأيام الجمع والأعياد ، فلا يكاد المصلي يسمع خطيباً ولا اماماً ولا مؤذناً يحسن استهواء القلوب . هذا في المدن اما في القرى فان نفسك تَتَلَمَّس مما تسمع ، وتود لو تخرج من المسجد قبل أداء الصلاة .

من عاداتنا ما يجب الاحتفاظ به لأنه جميل ومعقول ومنها ما ينبغي لنا ان نُقلع عنه لمنافاته روح الزمن ، وقانون المنطق الصحيح . والعقل هو الذي نحتكم اليه في مثل هذا الاصلاح .

اذا زكاك أحد في وجهك الزم الصمت فالصمت بك أشبه ، واذا استطعت أن تتصامم حتى لا تسمع ما يقول تحسن لنفسك . فقد يقول المزكّي فيك ما يقوله لمن هو أقل منك شأناً ، لأنه ما حفظ من معجم الأماديح الا ما يقوله لكل من يراه .

ما انحلت الدولة الاسلامية الا بانحلال أخلاق علمائها وملوكها أي بفساد السلطتين الروحية والزمنية كما يطلق عليهما الافرنج .

تتمتع الدولة بعظمتها ما دام أسطولها يشق عباب البحار ، فاذا ضعفت بحريتها يضعف سلطانها ، هكذا كان شأن البرتقال واسبانيا وهولاندة وتركيا منذ تخلفت عن خوض البحر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يضحكني ما أسمعه في البيئات المتفرنجة في بعض أصقاع الشام من الألفاظ المستحدثة الثقيلة على السمع والطبع ، يطلقونها على الرجال والنساء سواء . ومنها ما تعذّر عليّ النطق به مع اني كررته غير مرة . أولع بعض المسيحيين في الشام بالأسماء الفرنجية على ثقلها ويسمي الأقباط في مصر أولادهم بأسماء عربية اسلامية .

تكاد تكون كلمة العارفين متفقة على أن ديار الاسلام على تباعد أقطارها وأمصارها تتشابه في خرافاتها وأساطيرها ، ولعل معظم ما تعتقده من المعتقدات الباطلة انتقل اليها من الأمم السالفة أو من عوامل خلقها الزمن . التخريف يسطو على النصارى والمسلمين كما يسطو على البوذيين والبراهمة . ولا تكاد تجد انساناً مهما ارتقت مداركه يتجرد من خرافات يقف معها رؤساء الأديان وعلماء التربية موقف العجز ، لا يهتدون سبيلاً الى تبديلها او اصلاحها او القضاء عليها . ومن أرباب المذاهب من يتبرأ مما دوّنه أهل مذهبه وشاع عنهم بالتواتر وأبده البيان . وأصحاب كل مذهب غارقون في ترهاتهم مغتبطون بها ويتهمون أصحاب المذاهب الأخرى بالتخريف ويكذبون جهاراً على مخالفيهم الا من عصم الله .

يلتقط المرء من السياحة جزءاً عظيماً من ثقافته ، المدرسة يأخذ منها النظريات وتحصل له العمليات بالاختلاط والتغرب . اذا قوي حب السياحة في العرب ، وتوالى رحيل المنورين منهم الى أرض أرقى بحضارتها من أرضهم ، يعودون الى أهلهم بما ترقى به معايشهم ومظاهر حياتهم .

يوم اشتدت حاجة دول العرب الى اخصائيين في العلوم والفنون أقبل الأذكياء من بنيها على تلقفها ، فكان لهم في حكوماتهم أسمى المناصب وأوفر الرواتب ، وبهم بدا على بعض الأقطار طابع العصر وما جدّ فيه من ابداع .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يبالغ بعضهم اذا لقيتهم في تحيتك ويكثر من ذكر أشواقه ، واذا غبت عنه قد يعيبك ويغتابك فالأولى بك اذا اجتمعت الى من هذه أخلاقه أن تقطع عليه حديثه وتشغله بحديث غير حديث نفاقه .

يهر الغربيون الشرقيين بما ابتدعوه من حضارة ، فظن الشرقي ان فطرة الغربي هي التي أبدع بها ما أبدع ، وأن الشرقي يتعذر عليه أن يقلده ، فلما اختلط أهل المشرق بأهل المغرب ، ووقف الشرقي على أسباب فلاح الغربي ، تبين له أنه يشبهه من أكثر الوجوه ولا يتفوق الغربي الا بانتظامه ودؤوبه .

من الأردياء من يتعمدون اغضابك ليخرجوك عن اتزانك ، وليتخذوا من احراجك ذريعة الى ايذائك ، اذا وقع نظرك عليهم بادر الى الهرب منهم ، فالهرب ثلثا الشجاعة كما يقول العوام .

نجح من عالجوا في تآليفهم ما جودوه من دراسات جديدة في العلوم المعادية والمعاشية ، فحملوا الى من تناولوها معلومات صدوا بها نقصاً في معارفهم . ومن لا يُعْنَى كل العناية بتأليف ما يؤلف يعد محتقراً لمن يكتب لهم من أهل جيله وأهل الأجيال القادمة ، والكتاب الضعيف التأليف ، على أي حال ، محكوم عليه بالفناء بعد أيام تمضي على صدوره من المطبعة .

كنت أعتقد بعد مرور سنين على تأسيس معاهد التخصص — وشهادتها يحرزها الطالب بعد شهادة العالمية من الأزهر — ان خريجي هذه المعاهد سينزعون عنهم ثوب الخمول وينصرفون الى ما ينفع بتفكير جديد وعزم وطيد ، واذا بالكسل القديم هو الكسل ، واذا بالتواكل الذميم هو التواكل ، واذا المسألة مسألة طبائع وأخلاق وعلم وعمل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لم أعلم أية دولة من الدول الحديثة خرجت على قانون الانسانية فعدت المسالمين كالمحاربين ، واستجازت قتل الآمنين والمستأمنين ، وهم بمعزل عن ساحات الوغى . كانوا في الحروب الغابرة يقتل الرجال الرجال ، فابتدعت الدول في الحروب الحديثة بدعة قتل الأبرياء من الشيوخ والنساء والأطفال .

فطر الانسان على الشر ، والصالحون من جنسه شذوذ . علم الأنبياء والحكماء الناس مارفعوهم به عن البهيمية ، بيد أن تأثيرهم فيهم كان ضئيلاً لم يواز ما تحملوه من العناء في هدايتهم .

صررت برجل في الكهولة يعد نفسه لنيل الشهادة الابتدائية . في الغرب قد يبدأ المرء في الستين أو السبعين من عمره يتعلم علم ما قدر له تعلمه في صباه . ومنهم من يدرس لغة شرقية ، ولا يستغرب ذلك لأنهم كلهم مؤمنون بأن المرء يتعلم ما دام يعلو نَفَسُه وينزل .

أحط المجتمعات البشرية مجتمع لا تسمع فيه غير الاستسلام والرضا ، لانُقّاد ينقدون ما اختل من أوضاعه ، ولا دعاة أمناء ينكرون ما اعتل من أحواله ، كلهم موافقون ليس فيهم مخالفون .

من أخلاق هذا العصر ألا يصاغ المدح والقدح الا عن غرض ، فقد يبالغ رجل في وصف رجل لأنه قصده في حل مسألة فحلها له على ما يشتهي ، ويقدح في آخر لأنه لم ينزل على رغبته فينعته بالجهل والأثرة وقلة الخير . ولو قدر للمطعون فيه ان يراجع النظر بطلب من لم يعمل له ما يريد باديء بدء لعاد يكيل له المديح بالمكيال الواسع ولأقام له الأعذار على موقفه منه بالأمس . لذلك أوصيك أن تحذف معظم ماتسمع من المدح والقدح حتى تصل الى بعض الحقيقة فلطالما غش المادحون والقادحون من يسارعون الى تصديقهم ويثقون بما يقولون .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

اذا امتنعت من الاجتماع الى من اعتاد أن ينم لك وينم عليك تقلل من منغصاتك ، واذا تجنبت لقاء من فطروا على الضرر تعاون على الكبح من جماحهم .

لا تعرف مواطن الضعف من انسان حتى تعاشره ، ولا تتجلى لك عيوب البيت حتى تسكنه ، ولا تقص القانون حتى يوضع موضع التنفيذ .

في صحبة الأشرار مضرتان عظيمتان اما ان تعاشرهم على مضض فتكون حالك معهم حال من يساكن الثعبان لا يأمن يوماً عضته ؛ واما ان تتكلف في حديثك معهم لترضيهم فتتعلم بهم النفاق .

لما ظهر محمد علي الكبير في مصر كان وادي النيل وعامة البلاد العربية قد بلغت الحد الأقصى في انحطاطها ، فأدرك ببعد نظره أن تربة مصر بكر فتقدم وبذر فيها بذور المدنية فآتت أكلها ، وعدّ عمله المجيد من أدهش ما قام به فاتح شرقي .

ما كان التاريخ الى زمن قريب الا تدوين أخبار الحروب على ما يرضي الملوك ، وقد يعرض لذكر الظواهر الجوية من الزلازل والأوبئة والمجاعات والسيول والجفاف ، ويذكر من يموت من الفقهاء والأدباء . والتاريخ اليوم يبحث في أسباب الواقعات ويحللها ويعللها ويسلسلها ويهتم بالاقتصاديات والاجتماعيات ويدقق في أسباب الغنى والفقر ، والبواعث الى الثورات والحروب ، وينظر في سيرة من يتولون السياسة ، ويلم بكل ما يرفع بني الانسان ويخفضهم . يقول صديقي الأستاذ محمد عبد الله عنان المؤرخ المعاصر : أصبح التاريخ في عصرنا علماً جليلاً يقوم على المباحث والمقارنات العلمية والنقدية والاستنباط المسند ، وأصبح وثيق الصلة بكثير من العلوم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كان رجل يقول لابنه وهو يتفرس فيه النباوة : يا بُني انك لن تكون رجلاً ، ومضت أيام وارتقى الابن في وظائف الدولة وأحرز لقب باشا . فبعث ذات يوم يطلب أباه لمقابلته بواسطة الشرطة . فقال الابن لأبيه : كثيراً ما قلت لي اني لن أكون رجلاً ، وها قد كذبت الأيام ظنك فأصبحت في هذه المرتبة وهـذه الرتبة . فأجاب الأب : وما زلت على رأيي فيك فأنت وما بلغته من المظهر لا تعدُّ الى الآن في الرجال ، كيف تأتي بي اليك مخفوراً ، ولا تقدر ما يحدث لي ذلك من الترويع ؟ وهذه النكتة تصدق لعهدنا على بعض من ارتقوا في السنين الطويلة أو بعوامل أخرى ، وظلوا على فطرتهم من قلة الذوق وخشونة الطبع .

نشأ التبطل فى ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى — وأذكر انه بلغ فيها عدد المتبطلين يومئذ ستة ملايين — فأصدرت الحكومة الألمانية قانوناً يحظر على الرجل تعاطي أكثر من حرفة ، حتى ينفسح المجال لكل وطني أن يجد رزقاً ، بمعنى أن الطبيب يبقى في طبه فقط لا يمارس الزراعة ولا التجارة ، ويحظر على المالي أن يتجر أو يستخدم في الحكومة أو في شركة ، وعلى صاحب العقار ان يفتح معملاً ، وهكذا قسمت الدولة موارد العيش بين الرعايا وزادت على ذلك ان نقلت المعامل من جوار المدن الى الأرياف ، ومنحت كل عامل قطعة من الأرض يزرعها عياله فتأتيهم ببعض مؤونتهم .

أما في الشرق فقد شهدنا الخياط موسيقاراً ، والمزارع يندس في عمال الحكومة ، والمحامي يرابي ، وعهدي بحام يمارس مع حرفته خمس حرف ، وبملك يتجر ويقتني سفناً ينقل عليها تجاراته ، وبآخر يدير مزارعه على حسابه ولا يستطيع من في جواره من الرعية ان يبيعوا حاصلاتهم في الأسواق قبل أن تباع حاصلات الملك . فلو سرنا على القانون الألماني لوزعنا الثروة العامة على الطبقات ولقضينا على التبطل ، ولأدخلنا التحسين على الصناعات .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حدثني من شهد الثورة العثمانية المعروفة بانقلاب سنة ١٩٠٨ أن الأتراك في الأستانة أهانوا معظم وزراء السلطان عبد الحميد وعماله ، لما لقوا من جورهم أيام حكم الاستبداد ، الا عبد الرحمن باشا وزير العدل فانهم خطبوا في فضائله الخطب ، وأكبروا جلائل أعماله ، وعددوا بيض أياديه ، وحملوه على أكتافهم ورؤوسهم تمجيداً لماضيه الطاهر . يعرف الصالح من الرجال من عاشوا في حكم الطغاة على ما لا يعرف أمثاله في الحكومات الدستورية ، ذلك لأن من هم على شاكلته في الأخلاق قلائل في حكم الطغيان أشبه بالبقعة البيضاء في جلد الثور الأسود .

خطرت لي خواطر جمة وأنا أتصفح ديوان ابن حيّوس في مدح الدولة الفاطمية وهجوهم لما أدبرت دولتهم ، ورجوعه بأماديحه على من خلفوهم ، وتلونه في مدح العرب والترك ، وتجلت لناظري صفحات من تاريخنا الأدبي والاجتماعي ، وساءني أن ينظم مثل هذا الشعر الجزل في مدح الظلمة ، وأن أشهد رجلاً سنياً يطعن في الخلفاء بدون حق ليثبت للباطنية من الصفات كل ما يرضيهم فيرفعهم الى درجة الربوبية . وقلت كم ضاعت في العرب قرائح شغلت بالعبث ، وطوى الدهر الشعراء وشعرهم وما أفادوا منه الا حفنات من الدنانير ركبوا للحصول عليها مراكب العار الى الأبد ، وما عهد ان لفت شاعر من هؤلاء المداحين نظر ممدوحه خليفة كان أم ملكاً أم أميراً أم قائداً الى عظم مصيبة الأمة بمن يقتل من النفوس في سبيل شهوات العظماء والى ما تئن منه الانسانية من حيف الكبير على الصغير . وما كان للشعراء من عمل الا أن يخلعوا على ممدوحيهم صفات أكثرها كذب وتضليل ، وان يصوروا الخلق في ظل تلك الدول الفاجرة كأنهم الملائكة في جنات النعيم . وفي يقيني ان طلاب الأدب لعهدنا يمرون بهذه الأماديح والأهاجي كما يمر عابر سبيل بجيفة تؤذي حواسه بنتنها ومنظرها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الكلام صورة الروح الذي يصدر عنه ويكون وقعه في النفوس بقدر ما لقائله من اخلاص وصدق . شعر عمر بن ابي ربيعة وشعر الشريف الرضي أقرب الى القلوب من شعر المتنبي وشعر البحتري ، تقرأ في قصائد الأول والثاني العزة والكرامة وفي الثالث والرابع تتراءى لك المطامع وصغر النفس .

عرفت شيخين مصري وشامي تخرج الأول في دار العلوم وجمع الى تربيته الدينية الراقية تربية مدنية وأتقن الانكليزية حتى غدا يخطب بها كالانكليز . واكتفى الشيخ الثاني بالدرس في الأزهر ، وكلاهما من الذكاء على جانب عظيم . شهدتهما لأول أمرهما راضيين عن حالتهما الى أن قام في ذهن الأول أن صناعة التعليم عقيمة لا مستقبل لها فألقى نفسه في غمار السياسة طامعاً ان يتحدث الناس عنه كما يتحدثون عن مصطفى كامل الشامي ، وراح يسير على خطته وما أفلح في تقليده . وكان الثاني ضعيف الثقة بنفسه فاكتفى بما تدره عليه مهنته ، وأضاف اليها أموراً يتكسب منها قليلاً ، الا انه ظل طول عمره يتحسر على أوقات قضاها في صناعة التعليم ، وكانت تهيج نفسه اذا رأى بعض تلاميذه يتقدمه في المراسم بحكم مركزه .

وعندي ان هذين الرجلين صارا الى الانحطاط منذ أخذا يتطلعان الى ما لم يخلقا له ولا استعداد لهما للقيام به ، ولو كتب لهما أن يتوفرا على استثمار ما تعلما لأحرزا المظهر الذي تاقت نفسها اليه من دون صخب ولا كبير تعب ، ولكانت الدنيا أرضتهما من أفاويقها ما يعيشان منه برفاهية ، وما ينقصهما من المظاهر يعوضانه بما يتمتعان به من رضا النفس وراحة القلب . وأكبر العيوب التي تبدو في بعض أهل هذه الصناعة أنها تحاول جمع المغانم بأسرها ، تريد العلم وشهرته ، وتريد الجاه والمال ، وتريد الحكم والسياسة ، وتريد ان تعرف بالتقوى والصلاح وهي أبداً حانقة تود لو لم تدخل فيما دخلت فيه من تحصيل العلم ، وانها لو سالمتها الأيام لجعلت لها الخيار في اتخاذ صناعة رابحة غير التعليم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ربما كان الفقراء في القديم يهضمون أغنياء عصورهم أكثر مما يهضم أمثالهم في عصرنا . ذلك لأن الأغنياء في القدماء كانوا يعرفون واجبهم أكثر من هذا الخلف ، يفيدون من أموالهم من يحتاجون اليها وينفقون في نصرة الدين واحياء الآداب والعلوم ما كانوا يعتقدون ان الأمة لا تحيا بغيره . كان الأغنياء قديماً يحاسبون أنفسهم موقنين أن واجبهم ان يشاركوا الفقير في نعمتهم ، يبنون بيوت العبادة ، وينشئون المصانع المفيدة ، ويعينون الأدباء والشعراء على ماشغلوا به أنفسهم ، والفقيه والمحدث على نشر فقهه وحديثه . ولو لم يكونوا على ذلك في معظم الأدوار لما وجدنا اليوم في ديار الاسلام جامعاً ولا مدرسةً ولا مستشفى ولا أدباً ولا عالماً ولا فقيهاً ، ولا شيئاً مما هو الدعامة الأولى في حياة الشعوب . كانت تقوم بهذه المحامد الطبقة العالية والتالية لنفع الطبقة النازلة ، ولا تقصد من ذلك الا ثواب الله . وكانت الطبقة الثالثة أبداً موضع اهتمام سائر الطبقات .

عيدي بعشرات البيوت في الديار الشامية (دمشق ، حلب ، بيروت ، طرابلس ، حمص ، حماة ، نابلس ، القدس ، عكا ، يافا ، حيفا ، الناصرة ، صفد ، غزة) وقد نعق فيها غراب الخراب ، وافتقر أربابها بعد جيل أو جيلين من تأسيسها ، وذلك بالاسراف والمقامرات ، وباستنامة الأبناء الى ما خلف الآباء وترك السعي والعمل . أضاع الخلف ما خلفه السلف وأصبح حكم الأغنياء بعد النعمة الواسعة حكم من خلقوا فقراء ، والفرق بين هؤلاء ومن وصلوا الى الغنى وفقدوه ان قدماء الفقراء راضون عن حالتهم لا يستحون من ظهورهم بالمظهر الذي يقدرون عليه ، أما الأغنياء المفتقرون فأمسوا من المتعذر عليهم أن يلبسوا لباس المعدمين ويسكنوا في مثل منازلهم . حكم القانون الطبيعي بخراب تلك البيوت فاضمحلت ثرواتها بقلة التدبير وبتوزيعها بين الوارثين . ومثل ذلك جرى ولا يزال يجري في مصر وغيرها من ديار الشرق .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

قالوا السفر قطعة من العذاب ، وما كان هذا العذاب في الواقع يصيب غير الفقير ، والغني في كل زمن مرفّه في سفره كما هو مرفه في حضره . واذا اعتمد الفقراء على ركوب الحمير والخيل والبغال والجمال في تنقلهم فالأغنياء كانوا في الشرق والغرب يركبون المركبات والمحفات والهوادج لا يزعجهم شيء كأنهم في غرفة من غرف بيوتهم هُيئت لهم فيها جميع موجبات الراحة ، فتنقل لهم أدوات مطابخهم وموائدهم وفرشهم ويحمل لهم البطيخ والفاكهة . ومن الملوك والأمراء في الشرق من كانت تحمل لهم على المطايا مساكب البقول والخضراوات يتعهدها خدامهم بالري والتربية في الطريق حتى يصيبوا منها ما طاب لهم في اباته ، ومنهم من كان يحمل له الثلج من مئات من الأميال ، لئلا يضيقوا بالقيظ ، ويتململوا بالحرارة ، لا يختلف عيشهم في السفر عما كانوا ينعمون به ، لو كانوا في قصورهم في المدن .

ولقد كثرت الفنادق في الغرب منذ قرون ينزلها الأغنياء على الأكثر . وفي فارس كانت تتوفر للسائح الموسر كل ضروب الراحة لأن الدولة كانت تنقل أوامرها مع البريد على الخيل والبغال ، فأقامت محطات يتوفر فيها ما يقتضي للمسافر من أنواع النعيم . وأشبهت هذه المحطات الأديار التي كثرت في أوربا خلال القرون الوسطى ، وكان يقصدها السياح فتطعمهم وتؤويهم فان سمحوا لها بشيء قبلته وان لم يعطوها لا تطالبهم . بهذا كان القدماء يتغلبون على قطع المسافات ، وكانت مما لا يتصوره عقل أبناء هذا الزمان . ومعظم هذه المراحل الطويلة كانت في قفار وصحراوات لا ماء فيها ولا كلأ ولا حيوان ولا انسان . كان ابن المغرب الأقصى اذا نوى الحج يقضي حولاً كاملاً للوصول الى الأرض المقدسة والعودة منها في البر أو في البحر . واليوم تشهد أبعد المسلمين عن الحجاز داراً لا يصرفون أكثر من أسبوعين في السيارة او الطيارة . وهذا من فضل أوربا واميركا على البشر بما اخترعت عقول علمائها وأبدعته قرائحهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

قيل انه بلغ عدد المصطافين في لبنان في صيف ١٩٥١ أربعين الف مصطاف ، وقدر ما أنفقوه بمليوني جنيه مصري . وقد عُنيت الحكومة اللبنانية بنقل المصطافين مجاناً في البحر والجو ذهاباً وإياباً . وما كان هذا الاقبال على الاصطياف عظيماً في جبال لبنان الا لأن اللبنانيين كانوا يستعدون لاتقان صناعة الفنادق والمطاعم وما اليها ، منذ أكثر من نصف قرن ، وما أتى به اللبنانيون من أموال المهجر صرفوا جانباً منه في انشاء البيوت وتنجيدها واقامة الفنادق على اختلاف درجاتها ثم حملوا حكومتهم على أن تعبد لهم الطرق ، وتهيئ كل ما يعود على المصطافين بالراحة . وكان من توسع سكان الأقطار المجاورة في فهم مدلول التمدن وادراك قيمة الحياة والصحة ما زاد به الاقبال على الاصطياف .

من أبرد ما يبدو على لسان بعض المتنطعين قولهم في الحفلات العامة اذا خطبوا : «أحييكم باسمي واسم أبناء وطني» وهو ما وكل اليه أبناء وطنه قط ان ينوب عنهم في قول ما يقول ، وربما كانت أمته لا تعرفه ولا توافقه على فكره ولا على النيابة عنها ومنهم من يبلغ بهم التهوس فيما ليس لهم صوت فيه أن يحيوا من يحاول ان ينفقوا عليهم باسم العرب أو باسم أهل الاسلام كافة ، وفي هذا كل الرقاعة والسماجة .

محمد كرد علي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net